٨

حقيقة الزهد

الإنسان فى هذه الحياة لا تقف مطالبه وتطلعاته عند حد ، فإذا تحقق له مطلب نظر إلى ما بعده ، وإذا وصل إلى مستوى تطلع إلى ما فوقه .

وهناك من الأمور ما يحمد معه الطموح والاستزادة ، مثل طلب العلم وزيادة الإنتاج ، وما يعود على الفرد والمجتمع بالخير .

ومن الأمور ما يكون التجاوز فيه عن الحد ، إسرافًا وترفًا يصيب الفرد والمجتمع بالمفاسد والشرور ، ويؤدى إلى الانحلال والدمار . مثل إسراف الفرد فى المأكل والمشرب وما يؤدى إليه ذلك من العلل والأمراض ، وإسرافه فى ألوان الترف والزينة وما يؤدى إليه ذلك من ضعف وانحلال ، وشراهته فى جمع المال وحيازة الأرض وما يؤدى إليه ذلك من احتكار واستغلال . ثم تكون عاقبة ذلك كلها أن يعود الإنسان أسيرًا ، تستعبده شهوة الطعام والشراب والمال .

فكيف يستطيع الإنسان أن يعصم نفسه من الوقوع فى هذا الأسر . وأن يجنب نفسه العبودية وقد خلق ليكون سيداً لا عبداً للحياة ؟

هل يكون ذلك بما ذهب إليه البعض باسم الزهد وهو من القيم الدينية ، من الانصراف عن الحياة والإعراض عما فيها من متاع ، وتعطيل أسباب السعى والعمل ، وعدم المشاركة فى بناء المجتمع . والانطواء والسلبية فى معترك الحياة ؟

إن الأصل فى الزهد ، أن تزهد فيما تملك ، فإن لم تكن تملك شيئاً ففى أى شىء تكون الزهادة ؟ . .

فالزهد عملية إيجابية فيها ممارسة ومجاهدة . وقبل أن تبدأ هذه العملية لابد من أن يستكمل الإنسان مقومات حياته بالعمل والكسب والقدرة على الاستمتاع بمباهج الحياة . فإذا تم له استكمال هذه المقومات وملك أسبابها تبدا بعد ذلك مرحلة الزهد إن أراد .

أما أن يعيش منطوياً على نفسه ، بعيداً عن معترك الحياة ، وقد خلت يده من المال والمتاع ، ولا صلة له بزوجة أو ولد ، ثم يدعى أنه زاهد فى الدنيا ، فذلك وهم وادعاء . إنه لم يزهد فى الدنيا فما كانت الدنيا فى يده حتى يزهد فيها . ولكن الدنيا هى التى زهدت فيه ولفظته ، حين عزل نفسه عن نواميس الكون والحياة .

لماذا خلق الله الإنسان واستخلفه فى الأرض ؟

هل خلقه ليعمل ويستمتع بثمرات عمله ، أم ليعطى الدنيا ظهره وينفض يده من أسبابها ويحرم نفسه مما خلق فيها من متاع ، ثم يهرب إلى « خلوة » فى مسجد أو صومعة على رأس جبل ، وقد انقطع ما بينه وبين الحياة والأحياء ، وهو يتوهم أنه يهرب بنفسه من مفاتن الدنيا وموبقات[1] الحياة ، ليظفر بالثواب العظيم فى جنات

---

(١) الأمور التى تسبب الهلاك .

النعيم . . ومتى كان الهروب من الحياة سبيلا إلى الجنة . ولا سبيل إليها إلا بالعمل وخوض معترك الحياة ومجاهدة النفس والابتلاء .

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ؟) (١) .

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ (٢) نَبْتَلِيهِ . . .) (٣) .

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) (٤) .

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ) (٥) .

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا) (٦)

---

(١) الآية ١١٥ سورة المؤمنون .

(٢) العناصر المختلفة التي تتكون منها النطفة .

(٣) الآية ٢ سورة الإنسان .

(٤) الآية ٧ سورة الكهف .

(٥) الآية ٣١ سورة محمد .

(٦) الآية ٥٥ سورة النور .

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[1] ..

هذا هو وضع الإنسان فى الدنيا ، وهذا هو السبيل إلى الجنة .

ولقد أباح الله للإنسان أن يستمتع بالحياة الطيبة ، وحثه على ألا ينسى نصيبه من الدنيا وهو يتجه بعمله إلى الآخرة .

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)[2] ..

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ)[3] ..

جاء رجل إلى على بن أبى طالب يشكو إليه أخاه ، فقد لبس غليظ الثياب وتخلى عن الدنيا . فدعاه ، فلما حضر قال له :

ياعدو نفسه ، لقد استهام بك الخبيث[4] ، أما رحمت أهلك وولدك . أترى الله أحل لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها .. أنت أهون على الله من ذلك !

والإمام على بن أبى طالب له مواقفه الكثيرة التى يحذر فيها من عواقب الانغماس فى شهوات الحياة ، والاستجابة للمغريات الدنيوية ، ومع ذلك أنكر

---

(١) الآية ٩٧ سورة النحل .

(٢) الآية ٧٧ سورة القصص .

(٣) الآية ٣٢ سورة الأعراف .

(٤) استهواك الباطل وغرر بك الشيطان .

على هذا الرجل تخليه عن الدنيا وعزوفه[1] عن طيبات الحياة . لأنه إنما يذم من الدنيا فتنتها التي تورد الناس موارد التلف والهلاك . وتستعبد الإنسان بالشهوات فيسرف على نفسه وعلى المجتمع .

متى ينشأ الزهد إذن ؟ وكيف يكون ؟

ينشأ الزهد مع امتلاك أسباب الحياة . ليضمن الإنسان ملكاً حريته . محققاً التوازن النفسي والعملي في حياته . فلا يغلبه هواه . ولا تستبد به دنياه .

وهذا الزهد يحتاج إلى مجاهدة للنفس . فليس باليسير أن يزهد الإنسان فيما يملك . لأن النفس البشرية جبلت على الأثرة وحب الحياة بما فيها من متاع .

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ . ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ[2])[3] .

هي إذن الطبيعة البشرية التي لا جدال فيها . ولكن للطبيعة البشرية أيضًا ميزانها الذي يعصمها من أن تزل أو تنحرف أو تجور . هذا الميزان هو الذي يجعل الإنسان سيدًا لا عبدًا للحياة .

وذلك بأن يعرف الإنسان حدوده فيما يأخذ وما يدع ، وأن يكون قادرًا على أن يكبح جماح شهواته ، وأن يروض نفسه على الشدة وهو يعيش في رخاء ، وعلى

---

(١) زهده .

(٢) العودة والمصير .

(٣) الآية ١٤ سورة آل عمران .

الخروج وهو يمشط لحيته . وبذلك يملأ نفسه ويسرك معنى الزهد عن قسوة ووجدان . وبدينة التي نريح التي ستوفي جوانب هذه الصورة في حياة عمر بن عبد العزيز .

كان عمر في نشأته الأولى فتى مسلاً مترفاً مسرفاً في الأخذ بكل ما في الحياة من متاع . كان يتطيب بنوع من العطر له عبير خاص يعرف به ، حتى إنه ليكون قادماً من بعيد لا يراه أحد ، فتحمل ريح هذا العبير فيقول الناس : هذا عمر ابن عبد العزيز .

ثم تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ، فاجتمعت له من أسباب الجاه وامتلاك ناصية الدنيا وما في الحياة من متاع ما لم يجتمع لغيره . وكان الاتجاه الطبيعي للشاب الأموي المترف حين يستكمل في يديه كل هذه الأسباب أن يزداد إقبالاً على الدنيا واستمتاعاً بالحياة .

ولكن ما حدث كان على نقيض ما يؤدي إليه هذا الاتجاه . كان انقلاباً في كل شيء . وكأنما تبدل عمر بن عبد العزيز خلقاً آخر ليس بينه وبين ماضيه أي صلة على الإطلاق .

كان أول ما فعله أن جرد بني أمية مما اعتبره حقاً مغتصباً من الشعب ، ورد هذا الحق إلى بيت المال أو إلى أصحابه . وبدأ بنفسه وبزوجته فاطمة بنت الخليفة عبد الملك بن مروان .

وكان دخله قبل أن يتولى الخلافة أربعين ألف دينار ، فتركه لبيت المال ولم يستبق لنفسه ولأهله إلا ثلثمائة درهم .

كان قبل الخلافة يؤتى له بالقميص من الحرير الرقيق البالغ النعومة والرقة ، فيقول : ما أحسنه لولا خشونة فيه ، فلما تولى الخلافة كان يلبس القميص الغليظ المرقع ويقول : ما أحسنه لولا لينه !

كان قبل الخلافة مفتونًا بجارية[1] من جوارى زوجته ، وكثيرًا ما طلب منها أن تهب له هذه الجارية فكانت تأبى عليه ذلك . فلما تولى الخلافة وهبته زوجته هذه الجارية ، وأدخلتها عليه مجلوة فى أتم زينة وأطيب عبير . لقد حققت له أمنيته الغالية . . فلما اختلى العاشقان وسنحت له الفرصة المشتهاة . . حدثت المفاجأة التى لم تكن تخطر على بال .

إن عمر العاشق يعرض عن جاريته الحسناء ، وكلما حاولت الجارية أن تقترب منه ازداد إعراضًا عنها ونفورًا . وتعجبت الجارية من أمره فتقول له :

ياسيدى ، فأين ما كان يظهر لى من محبتك إياى ؟

فيقول : والله إن محبتك لباقية ، ولكن لا حاجة لى فى النساء ، فقد جاءنى أمر شغلنى عنك وعن غيرك .

ثم سألها عن أصلها ، ومن أين جلبوها[2] ، وأمر بردها مكرمة إلى أهلها فى بلاد المغرب .

وقد كان فى وسع عمر بن عبد العزيز أن يتزوج هذه الجارية التى عشقها قلبه وتمنتها نفسه ، وأن يستمتع بطيبات الحياة فى غير إسراف ، وأن يأخذ من زينتها فى قصد واعتدال ، ثم لا يجد فى نفسه حرجًا ولا ينال ذلك شيئًا من صفات الحاكم التقى الورع ، ولكنه عدل حتى عن هذا النهج المشروع ، وفرض على نفسه وعلى أهله طريقًا كله شدة وعناء ، وألزم نفسه ما لا يلزم من التجرد والزهد فى الحياة .

ومع هذا كله فإن عمر بن عبد العزيز لم يفرض على رجال دولته وعلى الناس هذا الأسلوب الذى أخذ به نفسه وأهله ، فقد كان يعطى عماله رواتب مجزية ،

---

(١) كان لنظام الرق بقية ، وقد عمل الإسلام على تصفية هذا النظام .

(٢) أحضروها .

وكان المجتمع فى عهده ينعم بمستوى عال من الكفاية والعدل والرخاء : حتى إن يحيى بن سعد وقد بعثه عمر بن عبد العزيز لتحصيل الزكاة من شمال إفريقية ، فلما جمعها طلب الفقراء ليوزعها عليهم فلم يجد فقيرًا ولم يجد من يأخذها منه ، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس !

ويفسر شخصية عمر بن عبد العزيز وفلسفته فى الزهد قوله : إن لى نفسًا تواقة ، لم تنل شيئًا قط إلا تاقت لما هو فوقه ، وقد نلت غاية الدنيا فنفسى تتوق إلى الآخرة !

إن الزهد عنده ليس مصدره الضعف أو العجز أو جفاف ينابيع الحياة فى نفسه وفى واقعه ، ولكن مصدره القدرة والامتلاء ، ثم الطموح إلى ما هو أفضل والتطلع إلى ما هو أسمى .

وهذا هو الزهد فى صورته المتكاملة . وهو « موقف » قبل أن يكون حالة . . . فرب زاهد أو متزهد انصرف إلى الزهد عن عجز أو فقر أو سبب من أسباب العدم ، فإذا وجد ما فقد ، أو لوحت له الحياة بمفاتنها أقبل عليها إقبال الظامئ على عذب الشراب . فهل يوصف مثل هذا بالزهد أو يحسب فى عداد الزاهدين ؟ .

إنما الزاهد هو الذى يملك أولا ثم يزهد فيما يملك إن أراد . إنه يتخذ « موقفًا » من الحياة يسترد فيه حريته ، فلا يدع الحياة تستعبده وتدفعه إلى الإسراف على نفسه وعلى المجتمع ، وبذلك يسيطر على نفسه ويملك قيادها ، ومتى استطاع أن يسيطر على نفسه استطاع أن يسيطر على الحياة .

وليس من الضرورى أن يكون الزهد — حتى على هذه الصورة — تحررًا مطلقًا من أسباب الحياة . ولندع زهد عمر بن عبد العزيز فهو مثل فريد لا يطيقه إلا القلة النادرة من الناس ، ولننتظر فى الزهد الذى يمكن أن يطيقه من يريد أن يأخذ بأسبابه ، نجد أنه الحد المتوسط والعمل الذى يملك عنده الإنسان حريته ثم يكون

بعد ذلك قادرًا على أن يأخذ أو يدع . أن تكون الدنيا فى يده وليست فى قلبه . أن يكون سيدًا لا عبدًا للحياة . وألا تستولى الأنانية على نفسه . بل يذكر حق المجتمع عليه . فيعطى أكثر مما يأخذ . ويبسط يده وقلبه بالبذل والعطاء .

٩

اعقلها وتوكل . . .

ومن القيم الدينية التى يلتبس أمرها على بعض الناس ، قيمة التوكل على الله ، فما معنى التوكل ، وما حقيقته ، وما أثره فى الفرد والمجتمع ؟

إن الإنسان فى هذه الحياة له قدرات محدودة ، تحيط بها قدرة الله التى لا تحد ، ومن هذه القدرة الإلهية يستمد الإنسان القوة والعون فى الحياة . وارتباط الإنسان بهذه الحقيقة هو أساس التوكل على الله .

حين يهم الإنسان بأمر من الأمور ، فيعد عدته ، ويستكمل أسبابه ، فما عليه بعد ذلك إلا أن يتوكل على الله فى بلوغ هدفه ، وأن يفوض أمره إلى الله فى تحقيق غايته يقول الله تعالى :

(فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ)[1]

---

(١) الآية ١٥٩ سورة آل عمران .

فالعزم أولا ، ثم التوكل ثانيًا . عليك أن تعمل أولا ، ثم تفوض أمرك إلى الله فهو وحده الذى يرعى عملك ويكتب لك التوفيق والنجاح .

وحين تتعرض الأمة للشدائد والمحن ، أو تواجه تآمر قوى الشر والبغي والعدوان ، فإن الإيمان بالله والتوكل عليه يمدها بطاقات لا تنفد من الصبر والصمود ، فلا تجزع ولا تتزعزع ، مؤمنة بنصر الله وتأييده .

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ، فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ، وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)[1] .

ولقد ظن قوم أن التوكل لا يستلزم الأخذ بالأسباب . ومن هؤلاء الأعرابي الذى ترك ناقته طليقة خارج المسجد ، فقال له الرسول ﷺ : اعقلها وتوكل !

ومنهم من يقرأ قوله تعالى :

(وما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)[2] .

فيقول : ما لى وللسعي والكد فى طلب الرزق ، وقد كفل الله لى نصيبى منه ، فهو يأتينى به حيث أكون ، ولو لم أنقل قدمًا أو أبذل جهدًا فى سبيل تحصيله .

ولو تدبر قوله تعالى لعلم أن الله كفل الرزق لكل « دابة » ، أى لكل مخلوق يدب على الأرض ، فهو يسعى فى طلب رزقه ، ويعمل لتحصيل معاشه ،

---

(١) الآيتان ١٧٣ و ١٧٤ سورة آل عمران .

(٢) الآية ٦ سورة هود .

فلا يعود من سعيه إلا وقد أصاب رزقه وجنى ثمرة عمله .

يؤكد هذا المعنى ويوضحه قول الرسول ﷺ :

« لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصًا [1] وتروح بطانًا [2] » .

لم يقل الرسول إن الله يرزق الطير وهي قابعة في أوكارها ، ولكنها تغادر أوكارها في الصباح جائعة خاوية ، فتنطلق وهي تضرب بأجنحتها هنا وهناك بحثًا عن ثمار الأشجار وسنابل الحقول وحشرات الأرض والماء . . وما تزال تجمع من هذا وذاك حتى تمتلئ حواصلها ، فتعود إلى أعشاشها وقد أصابت رزقها ورزق أفراخها الصغار .

إنها لم تزرع ولم تحصد ولكنها سعت في طلب الرزق ، فكان لها رزقها من هذا الزرع والحصاد !

وكذلك الإنسان حين يتوكل على الله حق توكله في سعيه وكفاحه ، مؤمنًا أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، لا يتكالب على الدنيا ، ولا يذل نفسه في الطلب ، ولا يسلك الطرق غير المشروعة لقضاء مصالحه .

إذا فعل الإنسان ذلك فتح الله أمامه أبواب الرزق ، ويسر له أسباب الخير ، ورزقه كما يرزق الطير التي لا حول لها ولا قوة ، إلا أجنحة ضعيفة تضرب بها في الهواء !

ولقد كان التوكل على الله في حياة الأنبياء والرسل مقترنًا دائمًا بالعمل على تبليغ الرسالة ، والصبر على الأذى ، ومجاهدة الباطل وأهله .

انظر إلى نوح عليه السلام ، وقد كبر على قومه أن يستجيبوا لدعوته ، فهو

---

(١) جائعة فارغة البطن .

(٢) ممتلئة البطن من الشبع .

يواجههم بالتحدى مستمدًا قوته من التوكل على الله .

(واتْلُ عليْهِمْ نَبأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِى وتَذْكِيرِى بِآيَاتِ اللهِ . فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ . فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وشُرَكَاءَكُمْ . ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً[1] . ثُمَّ اقْضُوا إِلَىَّ ولَا تُنْظِرُونِ[2])[3] .

وكانت الرسل تتعرض للأذى فى سبيل الدعوة الإلهية . فتقابل ذلك بالصبر والتوكل على الله :

(ومالَنَا أَلَّا نَتَوَكَّل علَى اللهِ وقَدْ هَدانَا سُبُلَنَا . ولَنَصْبِرَنَّ علَى ما آذَيْتُمُونَا . وعلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)[4] .

وأثنى الله على المؤمنين الذين عرفوا حقيقة التوكل . فآمنوا وعملوا الصالحات وصبروا وتوكلوا على الله . فقال سبحانه :

(والَّذِين آمنُوا وعمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ[5] من الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِين فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِين .

---

(١) خافيًا مستورًا .

(٢) عجلوا بما تريدون ولا تمهلونى .

(٣) الآية ٧١ سورة يونس .

(٤) الآية ١٢ سورة إبراهيم .

(٥) لننزلنهم .

الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)[1] .

والتوكل على الله بهذا المعنى لا يتعارض مع الأخذ بالأسباب . ورسم الخطط وتدبير الأمور .

إن الرسول ﷺ عندما هاجر من مكة إلى المدينة ، فرارًا بحياته ودينه من المشركين ، لم يمنعه توكله على الله من أن يختفى فى الغار ثلاثة أيام ، وأن يعد العدة والزاد والراحلة لهذه المغامرة .

ثم كان التوكل على الله من وراء كل عمل ، ومع كل عمل يقوم به الرسول فى السلم أو فى الحرب .

وقيل إن الرسول ﷺ ادخر لعياله قوت سنة !

وكان الرسول يعود سعد بن أبى وقاص فى مرض أشرف فيه على الموت .

فقال له سعد :

يارسول الله ، أوصى بمالى كله ؟

قال : لا .

قال سعد : فالشطر[2] ؟

قال : لا .

قال : فالثلث ؟

قال : الثلث ، والثلث كثير ! إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون[3] الناس فى أيديهم .

---

(١) الآيتان ٥٨ و ٥٩ سورة العنكبوت .

(٢) النصف .

(٣) يستجدون الناس بأكفهم .

فهل ترى هذا الذى قرره الرسول ﷺ ينفى الثقة بالله والتوكل عليه ؟ !

ومن الأخذ بالأسباب حين يمرض الإنسان أن يلتمس لنفسه الدواء . وقد سئل الرسول ﷺ عن الدواء هل يرد من قدر الله شيئًا ، فقال : « هو من قدر الله » .

وقال : « تداووا عباد الله فإن الله خلق الداء والدواء » .

وما كان التداوى ليمنع التوكل على الله فى التماس الشفاء ، ولكن ترك التداوى بزعم التوكل على الله فى ذلك ، مخالفة لما أمر الله به إذ يقول :

(وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) (١) .

ومخالفة للنواميس الإلهية التى تربط الأسباب بالمسببات .

ذلك هو التوكل على الله ، وهذا مكانه بين القيم الدينية ، وأثره القوى فى بناء الفرد والمجتمع . إنه ليس هروبًا من مواجهة الحياة ، وليس موقفًا سلبيًا من التكاليف التى يجب أن يؤديها الناس ، ولكنه قوة دافعة للعمل ، وطاقة يسيطر بها الإنسان على ما يواجهه من متاعب الحياة ، لأنها طاقة مستمدة من الإيمان بالله !

---

(١) الآية ١٩٥ سورة البقرة .

١٠

حرية الفرد وقيود المجتمع

ما هى الحدود التى تقف عندها حرية الفرد فى المجتمع الذى يعيش فيه ؟ وهل هذه الحدود تعتبر قيدًا على حرية الإنسان ؟ فمن حقه تحطيم هذا القيد وتجاوز هذه الحدود .

إن الحرية من أهم الحقوق المقررة للإنسان . ولكن الإنسان يعيش فى مجتمع لكل فرد من أفراده هذا الحق ، فلو انطلق كل فرد حرًا يفعل ما يشاء ، لتعارضت حريات الناس واختل نظام المجتمع ، فلابد إذن من حدود تقف عندها حرية الفرد ، حتى لا تكون حريته عدوانًا على حق غيره . وقد يعود إسرافه فى ممارسة هذه الحرية على نفسه بالضرر والهلاك .

ومن هنا كانت القيود التى يضعها المجتمع على حرية أفراده ، ضوابط لتنظيم حياة الناس أفرادًا وجماعات ، وضمانات تحول دون تعرضهم لما يفسد عليهم حياتهم

ويعرضهم لكثير من الشرور والأخطار .

ولهذا كان من واجب المجتمع أن يتعهد أفراده على رعاية هذه الحدود . فلا يسمحون لفرد منهم بأن يتعداها فى نفسه أو فى محيطه ، حماية له ولأنفسهم جميعًا من عاقبة هذا التعدى .

(ومنْ يتعَدَّ حُدُودَ اللهِ فأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)[1] .

وقد صور الرسول ﷺ هذا المعنى فى المسئولية المشتركة بين أفراد المجتمع فقال :

« مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا[2] على سفينة فى البحر ، فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها . فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم . فقال الذين فى أعلاها : لا ندعكم تصعدون فتؤذونا . فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقًا ولم نؤذ مَنْ فوقنا . فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا . وإن أخذوا على أيديهم[3] نجوا . ونجوا جميعًا » .

والقيم الدينية فى تحديد علاقة الفرد بالمجتمع ، ووضع القيود التى تنظم الحرية الفردية ، إنما تستهدف مصلحة الفرد والمجتمع فى وقت واحد ، وتأكيد الأساس المشترك والمصير المشترك للفرد والجماعة .

وإذا نظرنا إلى موقف الفرد إزاء تصرفاته التى تعتبر من أخص شئون حياته . ومدى حقه فى ممارسة حريته الشخصية . نجده ليس حرًا فى أن يمارس حياته على

---

(١) الآية ٢٢٩ سورة البقرة .

(٢) اقتسموا .

(٣) منعوهم .

الأسلوب الذى يريد ، حتى فى مأكله ومشربه ونفقته ، لأنها مقيدة بمصلحته هو أولا . ثم بمصلحة المجتمع باعتباره فردًا من أفراده ولبنة فى بنائه .

وفى ذلك يقول الله تعالى :

(وَكُلُوا واشْرَبُوا ولَا تُسْرِفُوا)[1] .

لأن الإسراف فى الطعام والشراب مفسدة للصحة ، وقد قيل : المعدة بيت الداء والحمية[2] رأس الدواء .

ولأن الإسراف فى الطعام والشراب يصيب الإنسان بالتخمة ، والمجتمع الذى يصاب فريق منه بالتخمة ، لا يكون ذلك إلا على حساب فريق آخر يصاب بسوء التغذية !

وقد يظن الإنسان أنه حر فى ماله ينفقه كيف يشاء ، وأنه ليس لأحد أن يحاسبه على ذلك أو يمنعه من التصرف فى ماله حسبما يريد .

وهذا ظن خاطئ لا يقره المجتمع . فإن مثل هذا الإنسان الذى لا يحسن التصرف فى ماله فهو ينفقه فى غير وجوهه المشروعة ، يفقد أهليته وتسقط حريته ، ويقرر المجتمع الحجر عليه ووضعه تحت وصاية من يرعى ماله ويصون مصالحه .

فإذا خرج الفرد من دائرة حياته الشخصية إلى علاقاته المباشرة بالمجتمع ، كانت القيود على حريته أوجب وألزم ، رعاية للمصلحة العامة وحماية لحقوق المجتمع .

فالتاجر الذى يحتكر سلعة من السلع ، يخفيها حتى تشتد حاجة الناس إليها فيبيعها بالثمن الباهظ الذى يفرضه . مثل هذا الرجل يقول فيه الرسول ﷺ :

---

(١) الآية ٣١ سورة الأعراف .

(٢) الامتناع عن الأكل لحماية الجسم من المرض .

« من احتكر الطعام أربعين يوماً برئ من الله وبرئ الله منه » . وللحاكم أن يستولى على السلعة التى احتكرها ويعرضها للناس بثمنها المقرر[1] .

وحماية مصالح المجتمع تقتضى تأميم المرافق العامة ، بحيث تكون ملكاً للأمة يعم نفعها الجميع ، ولا تكون ملكاً للفرد يتحكم فى إدارتها وإنتاجها ويستأثر بالنصيب الأكبر من ثمراتها . يقول الرسول ﷺ « الناس شركاء فى ثلاث : النار والكلأ[2] والماء » .

وهذه أمثلة للموارد العامة التى تعتبر قوام حياة الناس ، وهى موارد يجب ألا يستأثر بها أحد ، بل تكون ملكاً للمجتمع كله .

وللدين نظرة فى تقييم المال تحدد وظيفته فى الحياة . وتضع حدوداً ومقاييس لملكيته والتصرف فيه . فهو يحرم اكتناز المال وحبسه ، ويتوعد من يفعل ذلك بأشد العذاب ، لأن وظيفة المال هى أن يكون متحركاً فى خدمة المجتمع لا متجمداً فى خزائن الأغنياء .

يقول الله تعالى :

(. . . والَّذِين يكْنِزُونَ الذَّهَب والْفِضَّةَ ولَا ينْفِقُونَهَا فِى سبِيلِ اللهِ فَبشِّرهُمْ بِعذابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يحْمَى عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِباههُمْ وجنوبهُمْ وظهورهُمْ ، هَذَا ما كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ)[3] .

---

(١) كتاب « الحسبة فى الإسلام » لابن تيمية .

(٢) المراعى العامة .

(٣) الآيتان ٣٤ ، ٣٥ سورة التوبة .

هذه بعض القيود التي يفرضها الدين باسم المجتمع على حرية الأفراد في سلوكهم الخاصة، وفي مجال النشاط الشخصي.

وتضع القيم الدينية قيوداً على حرية الإنسان في الجوع حد التخمة والقصد والاعتدال، لتحرره من عبودية الشهوات، وتنقذه من السقوط في مهاوي الرذيلة والانحلال.

فهذا الذي يشرب الخمر أو يتناول العقاقير المخدرة، يهرب من مواجهة الحياة فيقع في غيبوبة يفقد معها ماله وصحته وكرامته، إنما يخسر نفسه ويخسره المجتمع، وقد كان جديراً به أن يكون إنساناً سليم الجسم والعقل، قوي الإرادة، يتمتع بحياة كريمة ويؤدي دوره في إسعاد نفسه وأسرته والمجتمع الذي يعيش فيه.

وهذه الفتاة التي تخرج عن حد القصد فيما تلبس، فتكشف عما ينبغي أن تستر من أعضاء جسمها، مندفعة وراء التقليد الأعمى لكل ما تقذف به المجتمعات المنحلة من أساليب الفتنة والإغراء، إنما تثير من حولها النظرات المسمومة والكلمات النابية، وقد كان جديراً بها أن تشيع من حولها الحياء والاحترام، لو أنها كانت قوية الشخصية متمسكة بما يفرضه عليها الدين والخلق، قادرة على أن تكون في زيها وسلوكها هي القدوة التي يأخذ عنها الغير، وليست لعبة في أيدي مصممي الأزياء من تجار الفتنة وحبائل[1] الشيطان.

فلو ترك المجتمع كلاً على هواه حراً فيما يفعل، لعادت هذه الحرية على الفرد والمجتمع بالوبال.

وكذلك تتأكد المسئولية المشتركة بين أفراد المجتمع في جميع نواحي الحياة. فهم مسئولون عن إقامة موازين العدل والمساواة بين الناس، ومحاربة الظلم والاستغلال والفساد.

((١)) مصايد.

وهنا تحدد القيم الدينية الطريق لحمل هذه المسئولية وأدائها على وجهها الصحيح . وتحذر من عواقب التراخي أو التواطؤ في أداء هذه الأمانة .

قال الله تعالى :

(والْعصْر . إنَّ الْإنْسانَ لَفي خُسْرٍ . إلاَّ الَّذين آمنُوا وعمِلُوا الصَّالِحاتِ وتَواصوْا بِالْحقِّ وتَواصوْا بِالصَّبْرِ) (١) .

ويقول الرسول ﷺ :

« من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » .

وقال تعالى :

(لُعِنَ الَّذين كَفَرُوا مِنْ بَني إسْرائِيلَ علَى لِسانِ داوُدَ وعِيسى ابْنِ مرْيم ، ذَلِكَ بِما عَصَوْا وكَانُوا يعْتَدُون . كَانُوا لَا يتَنَاهَوْنَ عنْ مُنْكَرٍ فَعلُوهُ ، لَبِئْسَ ما كَانُوا يَفْعلُونَ) (٢) .

وكان بعض الناس يقرأ قوله تعالى :

(يَـاأَيُّها الَّذين آمنُوا علَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يضُرُّكُمْ منْ ضَلَّ إذَا اهتَديْتُمْ) (٣) .

---

(١) سورة العصر .

(٢) الآيتان ٧٨ ، ٧٩ سورة المائدة .

(٣) الآية ١٠٥ سورة المائدة .

فيتصور أن الإنسان غير مسئول إلا عن خاصة نفسه . ولا شأن له بانحراف غيره مدام هو ملتزماً جانب الحق . وقد صحح أبو بكر - رضى الله عنه - مفهوم هذه الآية حين قام يخطب فى الناس فقال :

يأيها الناس . إنكم تقرءون هذه الآية : وتضعونها على غير موضعها . وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه ، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » .

وقال تعالى :

(واتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِين ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)[1] .

ذلك لأن الفتنة أو البلاء حين يحل بمجتمع نتيجة تعطيل الحدود وعدم التزام منهج الله وشيوع المنكرات ، لا يقتصر على المخالفين الذين كانوا سبباً فى وقوع هذا البلاء ، وإنما يعم الصالح والطالح ، والمحسن والمسىء .

روت عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال :

« إذا ظهر السوء فى الأرض ، أنزل الله بأهل الأرض بأسه[2] .

قالت : وفيهم أهل الطاعة ؟

قال : نعم : ثم يصيرون إلى رحمة الله » .

ذلك لأن من تمام طاعة الله تعالى ، ألا يسكت أهل الطاعة على وقوع المعاصى ، وأن يكون لهم موقف فى مواجهة المنكرات .

ومن القيم الدينية فى مجال المسئولية المشتركة ، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بالحكمة والموعظة الحسنة .

---

(١) الآية ٢٥ سورة الأنفال .

(٢) عذابه .

إن كل فرد فى المجتمع مطالب بأن يؤدى واجبه فى هذا المجال ، مستخدماً فى ذلك الأسلوب الذى يناسب كل موقف . وقد نشأ من هذه القيمة الدينية فى تاريخ الإسلام نظام الحسبة ، الذى يعطى أى فرد فى المجتمع حق الإبلاغ عن المخالفة أو الجريمة ولو لم تكن موجهة إليه أو واقعة عليه ، وحق توجيه الاتهام إلى مرتكب هذه المخالفة أو الجريمة ، وبذلك يؤدى واجبه فى درء الخطر عن المجتمع ، والنصيحة لله ولرسوله ولولى الأمر ، بما يحقق السلامة والأمن لهذا المجتمع وأفراده ، لأن المجتمع وحدة متكاملة ، ما يصيب أى فرد فيه يعتبر موجهاً إلى جميع أفراده . .

١١

الرقابة بين القانون والضمير

هل يستطيع الإنسان أن يكون رقيباً على نفسه أميناً على حدود الله ، محافظاً على حقوق المجتمع . دون أن يخضع فى ذلك لسطوة القانون وعينه الساهرة ؟

إن تجربة « الصوم » فى شهر رمضان تعطى الإجابة عن هذا السؤال ، الذى يبدو لأول وهلة وكأنه سرحة من سرحات الخيال .

إن الصائم قد يشتد به الجوع أو الظمأ ، وهو وحيد داخل غرفة مغلقة لا يراه فيها أحد ، ولديه ما يشاء من الطعام والشراب الذى يسد به جوعه ويطفئ ظمأه ، فلا تمتد يده إلى شىء من ذلك ، لا خوفاً أو حياء من رقيب ، ولكن خضوعاً لرقابة ضميره عن إرادة حرة واقتناع أكيد .

ولابد لكل مجتمع من قانون ينظم العلاقة بين أفراده ، وينظم العلاقة بين الدولة والمجتمع ، ويضع حدوداً تحقق الأمن والعدل ، وتحول دون العدوان

والظلم والانحراف .

على أن القانون بنصوصه وحدها . مهما تكن سلامة هذه النصوص وسمو مبادئها ، لا يكفل تحقيقَ هذه الأهداف مالم يصحب ذلك سلامةُ التطبيق من جانب القائمين على تنفيذه . والشعورُ بحرمة القانون من جانب أفراد الشعب .

هناك أجهزة للرقابة وتنفيذ القانون ، ولكن هذه الأجهزة نفسها لابد لها وهى تقوم على تنفيذ القانون من رقابة الضمير ، وإلا اختل فى يدها الميزانُ وتحوَّل القانون إلى أداة تميل بها الأهواء حيث تشاء .

وكذلك أفراد المجتمع ليسوا دائماً وفى جميع الحالات تحت أعين أجهزة الرقابة أو فى متناول قبضة القانون . فكم من جرائم تُرتكب وتقيد ضدَّ مجهول ، وكم من مجرم أفلت من يد العدالة لعدم كفاية الأدلة ، ولهذا كانت رقابة الضمير هى السند لسلطان القانون على الناس ، والضمان الأكيد لاتباع أوامره واجتناب نواهيه .

فكيف إذن تنشأ رقابة الضمير؟

كيف يتخذ الإنسان من ضميره رقيباً وحسيباً على تصرفاته ، حضر القانون أو غاب ، كان فى خفيةٍ عن الناس وأجهزة الرقابة أم كان تحت أعين الشهداء ؟

لِنَعُدْ إلى تجربة الصوم نجد عندها الجواب .

إن الصائم يؤمن بأنه يخضع لرقابة عليا لا تخفى عليها خافية ، وهو يستشعر هذه الرقابة فى ضميره ، ويقيم من ضميره رقيباً على نفسه ، ممتنعاً عن أمور هى قوام حياته ، متخذاً من ذلك عبادة يتقرب بها إلى الله .

هذه الرقابة الإلهية العليا هى مفتاح الموقف كله .

وإن استشعار هذه الرقابة وتَمثُّلَها فى الضمير ، ليس وقفاً على شهر رمضان فحسب ، ولكن شهر رمضان يعطى التجربة ويقدم المثل .

فالله سبحانه وتعالى رقيب على الناس فى كل زمان ومكان .

(يعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وما تُخْفِى الصُّدُور)[1] .

(إِنَّهُ يعْلَمُ الْجَهْرَ وما يخْفَى)[2] .

(وما يخْفَى علَى اللهِ مِنْ شَىءٍ فِى الْأَرْضِ ولَا فِى السَّماءِ)[3] .

(ما يكُونُ مِنْ نَجْوى[4] ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُو رابِعُهُمْ ولَا خَمْسةٍ إِلَّا هُو سادِسُهُمْ ولَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ ولَا أَكْثَر إِلَّا هُو معهُمْ أَيْنَما كَانُوا ثُمَّ يُنبئُهُمْ بِما عمِلُوا يوم الْقِيامةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىءٍ علِيمٌ)[5] .

والشعور بالرقابة الإلهية وتمثلها فى ضمير الإنسان ، يتصل بالإيمان الفطرى بالثواب والعقاب ، بالحوافز على أداء الخير ، بالزواجر عن فعل الشر ؛ بالعدالة الإلهية المطلقة فى الميزان .

(فَأَمَّا منْ ثَقُلَتْ موازِينُهُ . فَهُو فِى عِيشَةٍ رَاضِيةٍ . وأَمَّا منْ خَفَّتْ موازِينُهُ . فَأُمُّهُ هَاوِيةٌ[6] . وما أَدْراكَ ماهِيه . نَارٌ حامِية)[7] .

---

(١) الآية ١٩ سورة غافر .

(٢) الآية ٧ سورة الأعلى .

(٣) الآية ٣٨ سورة إبراهيم .

(٤) حديث السر .

(٥) الآية ٧ سورة المجادلة .

(٦) مأواه جهنم .

(٧) الآيات من ٦ إلى ١١ سورة القارعة .

(إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا)[1] .

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)[2] .

بهذه المعانى يستشعر الإنسان الرقابة الإلهية ويتمثلها فى ضميره ، ثم يقيم من ضميره رقيبًا على نفسه ، فهو يلتزم حدود القانون ويتحرز[3] من الوقوع فى الإثم أو الانحراف ، فإذا زلّت قدمه كان هو الذى يسلم نفسه للعدالة ويطلب تنفيذ أحكام القانون .

حدث ذلك فى عهد رسول الله ﷺ على صورة تبدو الآن عجيبة أشدَّ العجب ، ولكنها تدل على مبلغ ما يصل إليه الإيمان القوى والضمير الحى بين الناس .

قدمت امرأة على الرسول ﷺ تقول له :

يارسول الله ، إنى قد زنيتُ فطهرنى .

فأعرض عنها الرسول ، فانصرفت ، ثم عادت إليه فى اليوم التالى تكرر ما قالته بالأمس ، وتُلِحُّ فى طلبها وتقول : والله إنى لَحُبْلَى . . . . وكأنها تريد بذلك أن تقدم للرسول الدليل المادى على الجريمة التى ارتكبتها .

وهنا يقول لها الرسول :

---

(١) الآية ٤٠ سورة النساء .

(٢) الآيتان ٧ ، ٨ سورة الزلزلة .

(٣) يحترس .

أما الآن فاذهبى حتى تلدى .

وغابت المرأة شهوراً حتى ولدت ، ثم جاءت إلى الرسول تحمل وليدها بين يديها .

فقال لها : اذهبى حتى تفطميه .

وغابت المرأة شهوراً أخرى ، فلما فطمته جاءت بالصبى فى يده كسرة خبز فقالت : يانبى الله قد فطمتُه ، وقد أكل الطعام .

عند ذلك دفع الصبى إلى رجل من المسلمين ليرعاه وأقام عليها الحد . ثم صلى عليها وأمر بدفنها . . فقال له خالد بن الوليد : يارسول الله ، أتصلى على امرأة زانية ؟

فغضب الرسول وقال : مهلاً ياخالد .

وأخذ يثنى على موقف هذه المرأة المؤمنة التى تابت توبة لو وزعت على أهل الأرض لَوسعتهم .

امرأة ترتكب جريمة لم يشهدها أحد ، فتبادر بنفسها إلى الإبلاغ عن هذه الجريمة وتقول للرسول : طهرنى !

إنها تؤمن بأن الله مطلع على السر وأخفى .

(يعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وما تُخْفِى الصُّدُور)[1] .

وأنها إن استطاعت أن تكتم أمرها عن الناس وتنجو من القصاص فى الدنيا ، فإنها لا تستطيع أن تخفى هذا الأمر عن الله وتهرب من قصاصه فى الآخرة .

---

(١) الآية ١٩ سورة غافر .

(يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون)[1] .

[illegible] يتم عليها الحد . وينفذ فيها حكم الله .
[illegible] وتلقى ربها وتلقى الله طاهرة نقية . ليس عليها من أثر المعصية شيء .

وينهنها الرسول حتى تلد ، فتمضي عدة أشهر وهي حرة طليقة . لم توضع داخل سجن . ولم يُفرَجْ عنها بكفالة . ولم تُفرض عليها رقابة الشرطة . ولكنها كانت تخضع لرقابة أشد هي رقابة الضمير الحي الذي اعتصمت به طوال هذه الشهور . فلم تضعف ولم تراودها أسباب التشبث بالحياة فتعدل عن موقفها ذاك . بل ظلت تنتظر قَدَرَهَا على شوق ، وكأنها تنتظر يوم عيد ، حتى إذا وضعت أسرعت إلى الرسول تضع وليدها بين يديه . وقد كانت حريَّة ألا تعود لو استجابت لنداء الأمومة بعد أن ازداد ارتباطها بالحياة .

ويمهلها الرسول فترة أخرى حتى يُتمَّ الوليد الرضاعة .

وتمتد بها التجربة عدة شهور أخرى ، وهي حرة طليقة إلا من قيد الضمير . لم يكن قدومُها على الرسول أول مرة بدافع الشعور الملتهب بالذنب ، أو فورة الحماس الوقتي ، فإذا ما أتيحت لها فرصة الإمهال فترةً بعد أخرى خمد شعورها الملتهب وسكنت فورة الحماس . وعاودها تقدير الموقف بمنطق آخر يكفل لها السلامة والنجاة والتمتع بالحياة . ولكنها ظلت تقضي هذه الفترات الطويلة الثقيلة مؤمنةً صابرة ، تزداد كل يوم إصراراً على ما آمنت به ، ثم تعود إلى الرسول ومعها وليدها

---

(١) الآية ٢٤ سورة النور .

قد فضلته وبيده كسرة خبز . وكأنما تريد أن تقول لرسول محبته : لم يبق معك من سبب تصرفني به . وتحرمي حق في التطهير والحظوة !

إن الإيمان بالله ومراقبته في السر والعلن . يكسب الإنسان الشعور الدائم برقابة الضمير . وأمامه التجربة التي يمارسها ثلاثين يوماً كل عام . فكيف يكون سلوكه لو تابع هذه التجربة على مدى الشهور والأعوام ؟

وكيف يكون حال المجتمع لو استشعر أفراده رقابة الضمير في كل قول أو عمل . وأقام كل منهم نفسه حارساً على القانون . رقيباً على التزام حدوده . أميناً في أداء واجبه . مؤمناً بالجزاء العادل المحتوم .

لا أقول إن هذا المجتمع تنتفي فيه أسباب الجريمة والانحراف . ويعيش فيه الناس أطهاراً كالملائكة ، فذلك خيال لا يمكن تحقيقه على هذه الأرض ولا تستجيب له طبيعة الحياة . ولكن من الممكن أن أقول إن هذا المجتمع الذي تسود فيه رقابة الضمير وتلتقي مع رقابة القانون ، يتحقق فيه الأمن والسلام ، ويتضاعف فيه الإنتاج ، ويعيش أفراده في ظل الكفاية والعدل على صورة لا تتحقق في غيره من المجتمعات .

١٢

لبيك اللهم لبيك

من القيم الدينية ما يهدف إلى تكوين الفرد تكوينًا سليمًا ، وتربيته تربية قويمة ، بحيث يكون قوى العقيدة ، متين الخلق ، مستنير العقل ، يعرف ماله وما عليه ، وبذلك يكون مواطنًا صالحًا فى المجتمع ، وعضوًا نافعًا لنفسه ولأهله ولوطنه .

ومن القيم الدينية ما يتجه اتجاهًا مباشرًا إلى المجتمع ، فى حركة تمتزج فيها تربية الفرد بتوحيد مسيرة الجماعة ، ومن هذه القيم فريضة الحج التى تنتظم الملايين فى وقت معلوم ، يؤدون الشعائر من طواف بالكعبة ، وسعى بين الصفا والمروة ، ووقوف بعرفة . . . وقد توحدت قلوبهم وخطواتهم وأهدافهم ، استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام ، عندما توجه ببصره إلى السماء – وقد فرغ من بناء البيت العتيق – يقول : يارب ، قد فرغت . فتلقى الوحى أن أذن فى الناس بالحج . . .

قال إبراهيم : يارب ، وما يبلغ صوتى ؟

قال : إنما عليك الأذان ، وعلىَّ البلاغ .

(وَأَذِّن فِى النَّاس بِالْحجِّ يأْتُوكَ رِجالاً[1] وعلَى كُلِّ ضَامِرٍ[2] يأْتِين مِنْ كُلِّ فَجٍّ عمِيقٍ[3] . لِيشْهَدُوا منَافِعَ لَهُمْ ويَذْكُرُوا اسمَ اللهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُومَات)[4] .

ومنذ عهد إبراهيم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة ، تتوافد على البيت الحرام أفواج الحجيج من مختلف أرجاء الأرض ، ملبية دعوة الوحدة والتوحيد ، هاتفة من أعماقها : لبيك اللهم لبيك[5] .

والحج فريضة جامعة وهو كذلك فريضة جماعية ...

إنه فريضة جامعة لأنه يضم أركان الإسلام جميعًا : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله . لأن الحج يقوم على توحيد الله ، واتباع سنة رسوله فى أقواله وأفعاله .

وهو يضم الصلاة التى يؤديها الحاج خمس مرات كل يوم ، ويتذوق فى أدائها بالمسجد الحرام معانى جليلة . إن الصلاة فى هذا المسجد تعدل فى قيمتها وثوابها ألف صلاة فى غيره من المساجد ، عدا المسجد النبوى بالمدينة والمسجد الأقصى فى

---

(١) مشاة على أرجلهم .

(٢) الدابة الهزيلة التى أنهكها بعد المسافة .

(٣) طريق بعيد .

(٤) الآيتان ٢٧ ، ٢٨ سورة الحج .

(٥) استجبنا لدعوتك يا الله .

بيت المقدس . كما أن الصلاة فى المسجد الحرام تجسد للحجاج الشعور بالوحدة الإسلامية . حين يصطفون حول الكعبة من جميع جهاتها حلقة وراء حلقة حتى تمتلئ بهم ساحة المسجد الحرام . وما تزال هذه الحلقات تتسع وتمتد فيما وراء الأفق حتى تشمل فى اتجاهها نحو الكعبة جميع أقطار الأرض . فإذا سبعمائة مليون من المسلمين قد اتجهت قلوبهم وأبصارهم نحو الكعبة وقد رفعوا أيديهم إلى آذانهم هاتفين : الله أكبر !

ومن أعمال الحج الزكاة بمعناها العام ، والصوم تطوعًا أو فدية[1] لمن عجز عن أداء بعض شعائر الحج أو فاته شيء منها أو ارتكب بعض المحظورات[2] . قال تعالى فى شأن هذه الحالات :

(فمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ ، فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ[3])[4] .

(فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فى الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ)[5] .

---

(١) بديل .

(٢) الأعمال المحظورة فى الحج .

(٣) ذبيحة .

(٤) الآية ١٩٦ سورة البقرة .

(٥) الآية ١٩٦ سورة البقرة .

(. . . أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ ، أَو عَدْلُ[1] ذَلِكَ صِيَامًا)[2] .

والحج يجمع إلى هذه الأركان الأربعة فريضة الجهاد ، ذلك لأن الحج فى رحلته المنسابة من مختلف أنحاء الأرض ، تلبية للنداء الإلهى بالتجرد والتجمع فى الأرض المقدسة ، وما تتطلبه هذه الرحلة من إعداد وتحمل لمشاق السفر ، واختلاف الأجواء والأطعمة والمنازل ومألوف الحياة . ثم أداء المناسك[3] فى مواقيت محدودة ، وتحركات موقوتة ، ونظام محكم دقيق ، كل ذلك ممارسة للجهاد على صورة تجمع إلى التعبئة الروحية ، الإعداد العسكرى القائم على القوة والطاعة والنظام .

وفى شعيرة رمى الجمرات[4] بمنى ، معنى آخر من معانى الجهاد . إن الحجاج يذهبون بعد النزول من عرفة إلى مكان « الرجم » عند العقبة ، وهو المكان الذى شهد قصة إبراهيم الخليل وهو يصحب ابنه إسماعيل ليحقق رؤياه :

(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قَالَ يَابُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ : يَاأَبَتِ افْعَلْ ما تُؤمَرُ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ)[5] .

---

(١) ما يعادل ذلك .

(٢) الآية ٩٥ سورة المائدة .

(٣) الشعائر . أعمال الحج .

(٤) الحصى الذى يرميه الحجاج بعد نزولهم من عرفات وفى أثناء مقامهم فى منى .

(٥) الآية ١٠٢ سورة الصافات .

وفى هذا المكان يرمى الحجاج جمرة العقبة . كما كان يفعل إبراهيم وابنه إسماعيل . وهما يطاردان الشيطان الذى كان يتعقبهما ويوسوس لكل منهما ليصرف الأب الشيخ عن الوفاء بنذره . ويصرف الابن الصالح عن طاعة أبيه . أو لعل إبراهيم وابنه إسماعيل كانا يطاردان العواطف البشرية التى خلفاها عند أول الطريق . عواطف الأبوة الرحيمة الحانية فى نفس إبراهيم . وعواطف التشبث بالحياة فى نفس إسماعيل .

يفعل الحجاج ذلك كما كان يفعل إبراهيم وإسماعيل ، تعبيرًا عن معنى مجاهدة النفس ، ويفعلون ذلك لمعنى آخر . هو إثارة روح الكفاح فى نفس المؤمن ، وأن يكون موقفه من الظلم والعدوان « الرمى » والمواجهة : وليس المصانعة والاستسلام .

° ° °

والحج فريضة جماعية ، لأن كل ركن من أركان الإسلام يؤديه الإنسان منفردًا ، ومنها الصلاة التى تصح مفردة وجامعة ، إلا الحج فإنه فريضة جماعية تؤدى على المستوى العالمى . وهو بذلك يستهدف تحقيق غايتين :

أما الغاية الأولى فهى التجريد ، ولعلها وسيلة إلى الغاية الأخرى .

تجريد الإنسان من كل ما التصق به أو خالطه من مواريث فكرية أو اجتماعية ، ومن امتيازات طبقية أو جنسية . تبعد به عن فطرته أو تقطع الصلات الإنسانية بينه وبين المجتمع .

فهو يجىء هنا متجردًا من كل زينة أو شارة ، فى لباس متواضع بسيط يتساوى فيه الغنى والفقير ، والأمير والأجير ، يذكره باللباس الذى يخرج به من دنياه ، يوم يستقبل الموت ويستدبر الحياة .

وهو يجىء هنا متجردًا من جاهه ، وعصبيته ، وطبقته ، وماله ، وولده . .

نكرة بين الملايين ، لا سيداً منتفخ الأوداج[1] بين الأتباع والعبيد .

وهو يجيء هنا متجرداً – بل متحرراً – من أغلال الفقر والعبودية . فلا يرى للغنى المدل[2] بغناه . ولا للجبار المعتز بسطوته . ولا للأبيض المستعلى بلونه . لا يرى لهؤلاء فضلا ولا امتيازاً على من عداهم من الناس ، إلا بالتقوى والعمل الصالح لخير المجتمع ، وبما يملكون من رصيد إنسانى هو وحده الذى ترجح به كفة الميزان أو تشيل .

هذا هو التجريد الذى يعود بالضمير الإنسانى فى الحج إلى فطرته ، ويطرح عنه كل ما لصق به أو خالطه فى صراع الحياة من رواسب هى مبعث كثير من الشر والبغى والفساد ، وتستيقظ فى أعماقه المعانى الحقيقية لوجوده وإنسانيته ، فى مجتمع تتكافأ فيه الحقوق والواجبات .

(يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)[3] .

وأما الغاية الأخرى بعد التجريد فهى التوحيد . وهى النتيجة الطبيعية لذلك ، والحكمة الكبرى فى فريضة الحج ، تنتهى إليها شعائره وتؤدى إليها أعماله .

التوحيد فى صورته الكاملة الشاملة ، فى الفكر والعمل ، فى الحقوق والواجبات .

---

(١) عروق العنق التى تنتفخ كبرًا .

(٢) المتعاظم .

(٣) الآية ١٣ سورة الحجرات .

لأنه حين يتم التجريد فيعود المجتمع إلى فطرته السوية النقية . يسهل على النفوس أن تتقبل معانى التوحيد فى ظل المبادئ الإنسانية . فتتلاقى على هذه المبادئ تأخذ منها بمقدار ما تعطى . لا تستأثر ولا تحتكر . لا تحقد ولا تحسد . لا تضل ولا تشقى .

تتلاقى الملايين فى موسم الحج من مختلف أقطار الأرض . وقد اختلفت ألسنتهم وألوانهم وأجناسهم . وتباينت مستوياتهم الفكرية والاجتماعية . فلا يلبثون وقد تلاقوا متجردين متحررين أن تتهيأ نفوسهم للوحدة . إنهم يلتقون وجهًا لوجه ، وقلبًا إلى قلب . ورأيًا إلى رأى ، يتكاشفون ويتدارسون ، يعرضون على صعيد الوحدة كل ما لديهم من حصيلة العلم والتجربة . وما فى بلادهم من كنوز الطبيعة . وما فى شعوبهم من مصادر القوة . ثم يستعرضون ما أصاب بعض هذه الشعوب من تخلف وحرمان وعزلة فرضها الاستعمار على تعاقب العصور .

يستعرضون هذا وذاك . فى وحدة فكرية واعية ، ونظرة شاملة متكاملة ، ثم يرسمون الطريق لتحرير أوطانهم ، واسترداد حقوقهم ، واستثمار مواردهم ، ورفع مستوى الحياة فى شعوبهم ، وتحقيق القوة والعزة والوحدة للمجتمع العربى والإسلامى . الذى اختصه الله بكثير من المزايا فى موقعه من العالم ، وفيما تضمه أرضه وبحاره من كنوز الطبيعة ومصادر الثروة ، وماله من تاريخ حضارى متصل الحلقات منذ أقدم العصور . هذا المجتمع الذى ينتظره دوره الطليعى ليسهم مرة أخرى فى بناء الحضارة التى تقوم على الكفاية والعدل ، وتسعد فى ظلها الإنسانية ويتحقق لها الأمن والخير والسلام .

١٣

شهر القرآن

ليس بين الشهور ما يدانى شهر رمضان فى منزلته عند الله ، وفى بركاته التى تفيض على النفوس وتعمر القلوب ، وتنعكس آثارها على المجتمع حياة تتجدد فيها القيم الدينية والمبادئ الإنسانية ، فى مواجهة الصراع الذى يلف الحياة والأحياء وكأنه دوامة لا تهدأ وليس لها من قرار .

إن شهر رمضان أشبه ما يكون بواحة وارفة الظلال طيبة الهواء عذبة الماء موفورة الفاكهة يرفرف عليها الأمن والسلام ، يبلغها الإنسان بعد رحلة مرهقة فى صحراء الحياة ، وفى هذه الواحة يحط أثقاله ويسترد أنفاسه وتتحرر إرادته ، ويحل ضيفًا على أرحب ساحة وأكرم جوار . ثم يتزود لاستئناف رحلته فى الحياة بخير زاد .

أما علو منزلة هذا الشهر عند الله ، فيكفى للدلالة على ذلك أن الله تبارك

وتعالى – أنزل فيه القرآن هدى للناس ، وفرض فيه الصوم تزكية للنفوس . وقد سُمِّى هذا الشهر الكريم شهر الله ، وشهر القرآن ، وشهر النجاة .

وأما آثاره فى نفس الفرد وحياة المجتمع ، فإن أول مايفيده الإنسان من عبادة الصوم هو أن يتحرر من قيود العادة وعبودية الشهوة ، وأن يملك إرادته فيما يأخذ وما يدع ، ويكون صادقًا مع نفسه ومع الناس دون رقيب أو حسيب إلا رقابة الله والضمير .

ولهذا يباهى الله ملائكته بهذا المؤمن الصائم فيقول جل شأنه فى الحديث القدسى :

« ياملائكتى : انظروا إلى عبدى ترك شهوته ولذته وطعامه وشرابه من أجلى » .

إن رمضان هو شهر الوحى والقرآن والرسالة ، فيه بدأ اللقاء القدسى بين الأرض والسماء ، وفيه إلى جانب ذلك أعظم المعارك التى خاضها الرسول ﷺ جهادًا فى سبيل الحق والعدل والسلام .

إنه شهر مجاهدة وجهاد .

مجاهدة للنفس حتى تتحرر من عبودية العادات والشهوات والأهواء وترتفع فوق ضرورات الحياة ، وتقوى على تحمل الشدائد ومغالبة التحديات .

وجهاد فى سبيل المبادئ التى تصون للإنسان حريته وكرامته .

إن أول مظاهر الصوم وأساسه هو الامتناع عن الطعام والشراب ، وإذن فلا ينبغى أن يتحول شهر رمضان عند البعض إلى مائدة حافلة تلهب خيالهم طول اليوم ، وتتخم بطونهم بمجرد أن ينطلق أذان المغرب أو يدوى مدفع الإفطار .

الصوم يقوى الإرادة ويكبح جماح النفس ، وإذن فلا ينبغى أن يتخذ البعض من الصيام مبررًا لضيق الصدر وانفلات الأعصاب .

والصوم يكسب الإنسان نشاطًا فى الجسم وصفاء فى الذهن ، فهو أحرى بأن يمد الصائم قدرة على العمل وزيادة فى الإنتاج .

والصوم تطهير للنفس وتزكية للقلوب ، وترويض للجوارح على الطاعة ، وأخذ للأمور بالجد وصدق النية ، ومراقبة ذاتية للضمير ، وبذلك يمكن للإنسان أن يأخذ منه زاده على مدار العام ، وبذلك تتجدد حياته وتستمر على طريق الخير والحق والرشاد .

* * *

ألا وإن خير ما يتزود به المؤمن ويعمر به أيام رمضان ولياليه ، كتاب الله تبارك وتعالى ، يتلو آياته ويتدبر أحكامه . ويتصل بكتاب الله ما يعين على فهم مقاصده ، من حديث الرسول ﷺ وأقوال العلماء فى كل ما يتصل بعلوم القرآن من تفسير وفقه . . . فى العبادات والمعاملات ، وما يتفرع عن ذلك ويعبر عنه من علوم وفنون وآداب .

إن رمضان شهر القرآن . . فليكن هذا الشهر موسمًا لتلاوته ودراسته وتجديد الصلة به ، والاستمداد منه والسير على منهجه ، حتى يخرج الإنسان من هذا الشهر وقد توافرت لديه حصيلة علمية وشحنة روحية وممارسة عملية لآداب القرآن الكريم . إنها فرصة تشدنا إلى رحابه ، وتقوى صلتنا بأحكامه وآدابه .

عن على بن أبى طالب – رضى الله عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« ستكون فتن كقطع الليل المظلم » .

قلت : يارسول الله ، وما المخرج منها ؟

قال : « كتاب الله تبارك وتعالى . فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ،

وحكم ما بينكم . هو الفصل ليس بالهزل . من تركه من جبار قصمه الله . ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله . هو حبل الله المتين . ونوره المبين . والذكر الحكيم . وهو الصراط المستقيم . وهو الذى لا تزيغ به الأهواء . ولا تلتبس به الألسنة . ولا تشبع معه الآراء . ولا تشبع معه العلماء . ولا يمله الأتقياء . ولا يخلق على كثرة الرد . ولا تنقضى عجائبه . وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا . من علم علمه سبق . ومن قال به صدق . ومن حكم به عدل . ومن عمل به أجر . ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » .

وقال ﷺ :

« ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

أما آداب تلاوة القرآن الكريم ، وتمثل حكمته واستيعاب آياته ، فقد صور الإمام على رضى الله عنه ذلك فى وصفه للمتقين إذ قال :

« . . . أما الليل فَصَافُّونَ أقدامهم ، تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلا . فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعًا ، وتطلعت نفوسهم إليها شوقًا ، وظنوا أنها نصب أعينهم . وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم ، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها فى أصول آذانهم . فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون . وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون » .

إن القرآن الكريم الذى استهل هذا الشهر بنوره منذ نزل به الوحى على الرسول ﷺ وما يزال هو القبس الإلهى الذى يعطى شهر رمضان معناه المضىء واسمه الكريم : شهر القرآن .

وهذه المعانى المضيئة تشدنا إلى عدة حقائق : أن نعمر ليالى رمضان وأيامه بتلاوة القرآن الكريم وتدبر آياته ، وأن تنعكس هذه التلاوة فى سلوكنا برًا وخيرًا وجهادًا فى سبيل الخير .